مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 9 العدد 2 / ديسمبر 2023
ص ص 80–93

الخيـال والمتخيــل مقـاربة في المفـهوم والمصـطلح

Imagination and the Imaginary: an Approach in Concept and Terminology

سعاد بولحواش [1] *، الطيب بودربالة [2]

[1] المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة، الجزائر، مخبر المتخيل الشفوي وحضارات المشافهة والكتابة والصورة، باتنة 1، الجزائر

boulahouchesouad@gmail.com

[2] جامعة الحاج لخضر باتنة1، الجزائر، مخبر المتخيل الشفوي وحضارات المشافهة والكتابة والصورة، باتنة 1، الجزائر

tayebouderbala@yahoo.fr

الاستلام: 2023/08/10 القبول: 2023/12/31 النشر: 2023/12/31

ملخص:

تختلف المعاني باختلاف مصطلحاتها وتهدف هذه الورقة البحثية إلى تحديد العلاقة بين مصطلحي الخيال والمتخيل. فماهي دلالات استعمال هذين المصطلحين في الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة العربية الإسلامية والنقد العربي القديم؟،وهل كان لهذين المصطلحين فاعلية في بلورة مفاهيم الشعر والفن والإبداع في الثراث العربي النقدي والفلسفي؟

الكلمات المفتاحية : الخيال؛ التخييل؛ الصورة؛ الإدراك؛ الشعر؛ الإحساس.

Abstract:

The meaning vary according to their term,and this research paper aims to determine the relationship between the terms imagination and Imaginary,what are the implications of the use of these tow term in ancient greek philosophy,arab islamik philosophy,and ancient arab criticism?.were these terms efective in crystallizing the concepts of poetry,and creativity in the arab critical and philosophical heritage?.

Keywords: imagination; Imaginary; Image; perception; poetry; Sensation

* المؤلف المراسل

1.مقدمة:

إن مقاربة مفهوم الخيال والتخييل يدفعنا إلى تحديد مفاهيمه ومصطلحاته، وقد كان الخيال محلّ اهتمام الفلاسفة والبلاغيين والنقاد القدامى وقد أثاروا حوله العديد من القضايا النقدية والفلسفية كل حسب رؤيته الخاصة و توجهه البلاغي والنقدي وذلك لارتباط مفهوم الخيال بالعملية الإبداعية أو الانفعال الناتج عن التأثر أو الحالة النفسية التي تسهم في الإبداع الأدبي ويكون للخيال دورا فعالا فيها. وقد ارتبط مفهوم الشعر عند العديد من الفلاسفة و النقاد بالخيال والتخييل وإذا كان أفلاطون في كتابه الجمهورية قد ركز على مفهوم المحاكاة كمعيار للحكم على الفن القولي فإن هذه القضية قد أثارت جدلا كبيرا فيما بعد عند الفلاسفة فيما يتعلق بالواقعي واللاواقعي وذلك أن المتخيل غالبا ما يدرك بوصفه نقيضا للواقعي، ثم جاء أرسطو فخالف أستاذه أفلاطون حين جعل المحاكاة مرتبطة بأشياء غير كائنة أو ممكنة الحدوث

ويقوم هذا المقال على تفصيل وتوضيح معنى الخيال والتخييل و علاقتهما بالشعر، ذلك أن جل الفلاسفة اليونان والعرب المسلمين تحدثوا عن الخيال في إطار حديثهم عن العملية الشعرية، فالتخييل هو طريقة خاصة في الاستعمال اللغوي و هذه العبارة في حدّ ذاتها تثير جدلا كبيرا حول تدخل العقل في الإبداع وعلاقته بالحقيقي والواقعي و كذا الإدراك المعرفي وما ينتجه التخييل من مفاهيم كالمصورة والمخيلة والوهم.كما أنّ الخيال قد اتخذّ بعدا ميثافيزيقيا مع محي الدين ابن عربي حين أكدّ أنّ من لا يعرف مرتبة الخيال لا معرفة له، فالخيال عنده هو أصل الوجود . فماهي طبيعة العلاقة الموجودة بين الخيال و المحسوسات وهل الخيال ينافي اليقين وهذا ما فصل فيه حازم القرطجني في حديثه عن التخييل الشعري حين أقّر بأنّ الشعر لا يحقق أثره التخييلي إلاّ إذا وجد متلقي يملك الاستعداد النفسي للتعامل مع القول الشعري وتذوقه.

2. مفهوم الخيال والمتخيل في المعاجم العربية:

إنّ الحديث عن التعريف اللغوي لمصطلح الخيال والتخييل والمتخيّل يحتّم علينا البحث في الجدر اللغوي المشترك بين هذه المفاهيم الثلاثة وهو الجدر« خيل» وإذا استطلعنا المعاجم العربية نجد بأنّ كلمة « خيل» قد وردت في بعض المعاجم اللغوية نذكر منها:

1.2. لسان العرب لابن منظور:

جاء في لسان العرب « تَخَيَّلَهُ: ظنّه وتفرسه، وخيل عليه: شبه لشيء اشتبه هذا الأمر، لا يُخَيَّلُ على أحد أي لا يشكل، و فلان يمضي على المخيل أي على ما خيلت أي ما شبهت، و المخّيلة: موضع الخيل و هو الظن، كالمظنة: وهي السحابة الخليقة بالمطر»(منظور ا.، 1994 ص 387 ،388)، أي أنّ الخيال جاء بمعنى الظن والتشبيه.

2.2. القاموس المحيط للفيروز آبادي:

جاء في القاموس المحيط: « خيال الشيء يَخَال خَيْلا وخَيَلَهُ ويكسران (...) ومَخِيلَة و مَخَالةَ و مخيلُوله ظَنَّهُ (...) و الظن و التوهم ... والرجل الحسن المِخيلة بما يتخَيَّل فيه ... و تَخَيَّلَ الشيء له: تشبه... و الخيال و الخَيَالة ما تشبه لك في اليقظة والحلم، في صورة أخِيلهْ ...

يضرب لما تظنّ به ظنا فتجده على ما ظننت»(آبادي ا.، 1999 ص 373 ،372).فالخيال هو الظنّ و التوهم و هو الشخص على ما تشبه لك في الحلم واليقظة.

3.2. المعجم الوسيط:

ورد في المعجم الوسيط: « خيل الرَجُل (بالبناء للمجهول) كثرت خيلان جسده، فهو مخيّل ومخَوَل و مخيول، خيل إليه أنه كذا: لبس و شبه ووجه إليهم الوهم»(مصطفي، ص266). ومنه ما جاء في قوله تعالى: « يُخَيَّلُ إِلَيْهِمْ من سِحْرِهِمِ أَنَّهَا تَسْعَى»(سورة طه، آية06).بمعنى أن الخيال أو التخيّل هو الوهم والإيهام.

4.2. تاج العروس:

ورد في معجم تاج العروس للمرتضى الزبيدي: « تخيل، وتَخايَلَ: إذا تَكَبّرَ، و خَيَلَ في الخَيْر: تفرسه، كتخيله و تخَوُلِهِ بالياءو الواو، يقال تَخَيَّلَهُ فَتَخَيَل، كما يقال: تصوره فَتَصَوَرَ و تحققه فتحقق»(الزبيدي، 1994 ص218).

و من خلال هذه المعاني اللغوية، يتضح بأنّ الجدر اللغوي (خيل) تتفرع منه عدّة مفاهيم، فالخيال هو الشخص، و هو الطيف، و هو الوهم والتوهم، وجاء كذلك بمعنى الظن وبمعنى الصور المشبهة في الذهن كذلك

3. مفهوم الخيال والمتخيّل في الفلسفة اليونانية القديمة:

إن الحديث عن مفهوم الخيال أو المتخيل في الفلسفة اليونانية القديمة يستدعي الحديث عن بعض المفاهيم النظرية التي تبسط مفهوم الخيال وتشرحه، ذلك أنّ الفن الشعري هو إبداع أو إنتاج أدبي أو هو موضوع ناتج عن المحاكاة والتي بدورها لا تتحقق إلاّ إذا تحقق الخيال أو التخيل والذي هو بمثابة المحرك الذهني للعملية الإبداعية، فالتخييل هو انفعال ذهني لا واع تستجيب به النفس لمقتضى الصور الفنية فتقوم في طلب موضوعها أو تنفر منه وتتفاداه، ومن ثمة، فهو نتاج تفاعل جمالي بين الشاعر والمتلقي يتمخض عنه وعي جديد بالعالم و الأشياء مغاير في الطبيعة الإدراكية للوعيين الحسي والعقلي، فحين ترتسم في ذهن الشاعر رؤى خيالية ذات إيحاءات جمالية مؤثرة، و يكتمل وعيه الإبداعي بها، يشكلها بالأسلوب الشعري المناسب لها، ليبثّها في الناس لتثير في نفوسهم وخيالاتهم الانفعالات و الرؤى الفنية ذاتها التي عاشها في تجربته التخيلية(الادريسي، 2012 ص25).

وسنقتصر الدراسة حول مفهوم الخيال والتخييل عند الفلاسفة اليونانيين على ثلاثة فلاسفة وهم أفلاطون، وأرسطو، وكانط.

1.3. أفلاطون:

لقد وظّف أفلاطون كلمة خيال في إطار حديثه عن القوى النفسية والحواس الجسدية التي تتّم بها عملية الإدراك الذهني، أي أن معرفة العالم الخارجي وفهمه مرتبط بملكة باطنية هي الخيال، كما أن الحديث عن مصطلح الخيال عند أفلاطون يدفعنا إلى طرح العديد من التساؤلات منها: ما طبيعة العلاقة بين الخيال والقوى النفسية والحواس الجسدية التي تتم بها عملية الإدراك الذهني؟ وما هو الدور الذي يلعبه الخيال في عملية الإبداع الشعري؟ وما هي العلاقة بين الخيال والمحاكاة؟.

إنّ الإجابة عن هذه التساؤلات لا تتمّ إلاّ من خلال طرح نظرية أفلاطون في الشعر وعرض

موقفه منها، إذ يؤكد أفلاطون في كثير من المواقف في كتابه الجمهورية من وجود علاقة بين الخيال و المحاكاة و الإبداع الشعري.

فقد حظي الشعر عند أفلاطون بعناية خاصة لكونه كان يحتل مكانة بارزة في أثينا تنسجم مع دوره في تربية النشئ وفاعليته في تقويم السلوك وتطهير النفس من الانفعالات السلبية، و ما يدلّ على هذه الحظوة تأكيده على قدسية الذآت الشاعرة ومخاطبته الشعراء بلغة يطبعها كثير من الاحترام والتقدير(الادريسي، 2012 ص 44 ،45) و لقد كان أفلاطون واعيا بوجود علاقة سببية بين الخيال والإبداع وأخرى تفاعلية بينه وبين المحاكاة، ويتضح ذلك في معرض تساؤله « ما هي الملكة التي تؤثر فيها المحاكاة في الإنسان»(الادريسي، 2012 ص 39).

و قد استبعد أفلاطون الشعر القائم على المحاكاة، ذلك لأن الشعر القائم على المحاكاة هو فن رديء يزيد الواقع اعتمادا على التمثيل والرسم والصور. وتفيد مجالات توظيف المحاكاة أنها تعني تقليد الآخرين والتشبه بهم سواء في الكلام أو في الحركات، و الشعر عند أفلاطون هو محاكاة لما هو موجود في الواقع عن طريق التمثيل.

و المحاكاة وإن كانت تقوم على إعادة إنتاج مواضيع حسية معينة إلا أنها ليست ذات طابع مرآوي، لأن الصور التي تشكلها لا تهدف إلى صوغ نسخ حرفية مطابقة للأصل، ولكنها تسعى إلى خلق عوالم خيالية مشابهة للعالم المادي، وعن طريق هذه المشابهة، تنشد تقديم معرفة جديدة بالعالم ورؤية مغايرة له(الادريسي، 2012 ص 41) وعلى هذا الأساس ميّز أفلاطون بين ثلاثة عوالم مختلفة.

- عالم المثل و الصور العقلية الخالصة و الأصلية.
- عالم الظلال و المظاهرالمحاكية لعالم المثل.
- عالم الصور و الخيالات المحاكية لمظاهر عالم الظلال.

واعتمادا على هذه التقسيمات عرّف أفلاطون التخيّل بأنّه مصوّر أو رسّام يرسم في النفس أشباه الأشياء المدركة بالحسّ، و يأخذ من الحواس التي تصبح مادّة للتفكير، و في هذا التعريف يجعل أفلاطون وظيفتين هامتين للتخيّل، إحداهما هي استعادة صور المحسوسات، وهذا ما يعنيه أفلاطون بتصوير الأشياء المحسوسة في النفس. والثانية هي استخدام الصور المحسوسة في التفكير(نجاتي، 1980 ص153). فالمحاكاة بوصفها فعلا إبداعيا تعيد إنتاج الواقع من صور جديدة اعتمادا على ملكة المبدع الخيالية أو القدرة التي يمتلكها الفنان في تصوير الأفعال الإنسانية. وقد تختلف صور المحاكاة بين الجودة والرداءة، ولم يسم أفلاطون ملكة الخيال بالمصطلح الدال عليها، بل أشار إليها بالجزء الوضيع من النفس و « بالقوة اللاعقلانية».وبذلك يكون قد قسّم ملكات الإدراك الذهني إلى جزأين فالجزء الأوّل هو العقل وهو جزء شريف و فاضل، و الجزء الآخر هو الخيال، وهو جزء دنيء وخسيس، وسبب سموّ العقل يعود إلى كون أحكامه تستند على القياسات البرهانية الصحيحة والمنطقية وتوصل الفكر إلى حقائق الكون الكلية والجوهرية، أما خسّة الخيال فتعود إلى كون مواضيعه تنبني على الظنون و الاعتقادات

الباطلة، وأنّها لا تنشد غايات شريفة وصحيحة، كما ترجع خسّة الخيال أيضا إلى نظرته للأشياء ذاتها و حكمه عليها لا يستقر على حال، فتارة يصوّرها بمظهر جميل، وتارة يصوّرها بمظهر قبيح، ثم إنّه « يخلق أشباحا و يقف دائما بعيدا كل البعد عن الحقيقة»(الادريسي، 2012 ص 40).

2.3. أرسطو:

اهتم أرسطو في كتابه « النفس» و « فن الخطابة» بالخيال الشعري، ولقد اقتصرت عنايته بالخيال على الجانب الإدراكي وليس الإبداعي، وقد وقف أرسطو عند الخيال بالتفصيل في كتابه النفس، حيث أفرده بمباحث مستقلة و تأمّلات عميقة حدد فيها ماهيته الإدراكية، وطبيعته الذهنية و وظيفته النفسية، ولم يأت على ذكره و لو مرّة واحدة في كتابه «الشعر» ومن ثم لم يبرز طبيعة الحركة الإبداعية للخيال و خصوصيته الجمالية.

و يتضح مفهوم الخيال عند أرسطو من خلال تحليلاته للمادّة المصوّرة، فكل الموجودات لها مادّة و صورة، فالموجود الفردي هو المادّة، وقد تشكلت وانتظمت حسب مبدأ تكويني مجدّد هو الصورة. و قد ربط أرسطو بين ثلاث مفاهيم هي الخيال والإحساس و الفكر، واعتمد الخيال ملكة إدراكية، وقوّة محرّكة وفعّالة، فالخيال يختلف عن المحاكاة، وقد سعى أرسطو في كتابه «النفس» للوصول إلى نتيجة انطلق فيها من طرح السؤالين الآتيين:

- ما هي العلاقة بين الخيال والإحساس من جهة؟
- و ما هي العلاقة الموجودة بين الخيال و الفكر من جهة ثانية.

فقد جعل أرسطو الخيال حلقة مهمة تربط بين الفكر و الإحساس « فإذا كانت اللذّة تقوم في الإحساس بانفعال معين، والخيال إحساس ضعيف، فإنّ من يتذكر ومن يؤمل يعنيهما تخيّل ما يتذكر أو يؤمل، و كما كان الأمر هكذا، فمن البَيّن أن ثمّ لذّة لمن يتذكر، و لمن يؤمل لأنّ ثمة إحساسا»(ارسطو، 1986 ص 76)، فثمّة علاقة بين الخيال واللذّة النفسية وبواعثها الذهنية والسلوكية، فالرّغبة تثير الخيال و تفعّله، والخيال الذي قصده أرسطو هوالصور الذهنية التي تنطبع في النفس وتفعّل الإحساس.

و في نفس الوقت فإنّ هذا الخيال يرتبط بذاكرة أوليّة تختزن الصور وتتلاءم و محيطها المباشر، وهذا ما قصده أرسطو بقوله إنّ الخيالات استجابة للآمال والذكريات التي تنبعث في الذهن، و أنّها تبثّ لدى الإنسان متعة نفسية قوية و عميقة، فالخيال أساس عملية التفكير، والخيال عند أرسطو هو العملية التي تتمثل عبرها الصور الذهنية، وهو شكل من أشكال الذاكرة و مصدر الإلهام.و تتحدد حقيقة عمل الشاعر في طبيعته التخيّلية التي تتراوح بين عمليتين إبداعيتين: تمثيل الأفعال و الأخلاق كما هي في الواقع أو كما كانت في الماضي، أو تمثيلها كما يجب أن تكون، وهنا تبرز العلاقة بين الواقعي والتخييلي الشعري.

فالتخيل عند أرسطو هو القدرة أو الملكة التي يستطيع بموجبها الفنان استعادة أحاسيس ماضيه أو غائبه، أو تنبيه أو حركة ناتجة عن وصول التنبيهات الحسية إلى الحس المشترك، وبما أن التخيل حركة ناتجة عن الإحساس بالفعل فهو إذن شبيه بالإحساس، كما أن

الصور الخيالية شبيهة بالإحساسات، غير أن التخيل أضعف من الإحساس، لأن الحركة الحسية تضعف في طريقها إلى الحس المشترك، ولذلك فإن أرسطو يعرف التَّخَيُّلَ أحيانا بأنه إحساس ضعيف (نجاتي م.، ص 197).

و بهذا يكون أرسطو قد أعطى مفهوما للخيال فهو يربطه بالمحاكاة في كتابه« فن الشعر» و الفنطاسيا في كتابه « في النفس» فبالإضافة إلى أن الخيال له علاقة بالإحساس والفكر من جهة، فإن له علاقة بالوهم من جهة أخرى، فقد ربط أرسطو بين الخيال و الوهم على اعتبار أن وجودهما يقفز بالإنسان من كل ما هو واقعي يدرك إلى كل ما هو متخيّل يتجاوز الواقع لإدراك الجوانب الوجدانية، ومن هنا راح أرسطو يرفض فكرة تحرير الخيال بشكل كلّي مطلق من صرامة العقل، بل إنه أكّد على لا جدوانية الخيال ما لم يشتغل تحت إمرة العقل و وصايته و ذلك تحت يافطة الإقناع»(الديهاجي، 2014 ص18).

3.3. كانط:

لقد احتّل الخيال دورا مهما في تحليلات كانط الفلسفية ولعلّ ما يهمنا من فلسفة إمانويل كانط هو الخيال من ناحية مفاهمية فكرية فلسفية وهل الخيال معطى بسيط في فلسفة كانط أم صور تركيب معقد ينطوي على الكثير من الغموض واللّبس. و الحقيقة أنّ كانط قد تحدّث عن الخيال وأعطى له مكانة عالية في كتابه « نقد العقل الخالص» إذ أنّ هناك مصادر ثلاثة أوّلية، أو ملكات أو قدرات للنفس، تشكل شروط الإمكان بالنسبة لجميع معارف الاستبيان، ولجميع التجارب، وهي مصادر لا يمكن اشتقاقها من أيّة قوّة عقلية أخرى، إنّها الحواس والخيال والإدراك»(المصباحي، ص 31).

فقد حدّد كانط الخيال بكونه شرط للمعرفة الإنسانية والتي هي جمع بين الحواس والخيال والإدراك. وقد قسّم كانط ملكات الإدراك الذهني إلى ثلاث أقسام ويقع الخيال في مرتبة وسطى بين الحسّ والعقل. ويعتبر الخيال في فلسفة كانط نشاط نفسي ذو علاقة بالمكان، فمدار حركته الذهنية يتمثل في استحضار مدركات الماضي أو إعادة إنتاج معطيات الحاضر أو استشراف المستقبل، إذ يرى أن الخيال هو:

- ملكة تشكيل الصور التي تجسد تمثيلات الحاضر.
- ملكة إعادة إنتاج الصور التي تعكس تماثلات الماضي.
- ملكة إشراف الصور التي تحبس تماثلات المستقبل(الادريسي، 2005 ص 11).

وقد أكّد كانط على تقسيمه الثلاثي في كثير من المواضع لطرح فلسفته المعرفية فيقول كانط: من أجل أن تصبح المعرفة القبلية لجميع الموضوعات ممكنة فإنّ الشيء الأوّل الذي يجب أن يعطى لها هو معطيات الحدس الخالص، أما الثاني، فهو تركيب هذه المعطيات عن طريق الخيال، وهذا في حدّ ذاته لا يقدّم حتى الآن أيّة معرفة، أمّا العنصر الثالث الذي لا غنى عنه لمعرفة موضوع ما فيتعينفي مفاهيم الذهن التي تضفي طابع الوحدة على هذا التركيب الخالص للمعطيات الحسّية»(المصباحي، ص32).

فوظيفة الخيال هي تركيب معطيات الحدس، فهو قوة فعالة وجزء رئيسي في عملية الإدراك،

فعن طريق الخيال يتمكن الإنسان من ربط المعطيات الحساسة بعضها ببعض، و جعلها متوافقة مع الشروط الضرورية لوحدة الإدراك، أي مع مقولات الذهن والفهم، ويتحقق عن طريق الوظيفة التركيبية للخيال(المصباحي، ص32). وقد قسم كانط الخيال إلى قسمين وظيفيين: خيال منتج وهو ملكية الحدس بالموضوع وقوة تمثيله على نحو خالص ودقيق حتى في غيابه، وخيال معيد للإنتاج وهو القدرة على استحضار حدس حسّي سبق إدراكه وإعادة تمثيله. ويبدو جليّا دور الخيال في فلسفة المعرفة عند كانط إذ أنّ الخيال هو طاقة فعّالة وقوّة أساسيّة تشتغل قبليا باعتبارها مبدأ لكل المعرفة.

4.الخيال عند الفلاسفة المسلمين العرب:

1.4. الفرابي: (339 ه):

لقد استعمل الفلاسفة المسلمين مفهوم التخييل في نظرياتهم حول الشعر باعتباره خاصية جوهرية في الشعر، كما جاءت جلّ مفاهيمهم للخيال عاكسة لنظريات الشعر عندهم. و لم تبتعد كثيرا آراء الفلاسفة العرب حول الخيال و التخيّل والمخيّلة عن سابقيهم الفلاسفة اليونانيين، ذلك لأنّهم ترجموا كتب الفلسفة اليونانية و قرؤوا عنها.

لقد اهتّم الفرابي بالخيال الشعري وقصد به الأثر الذي يتركه الشعر في نفس المتلقي، و ما الشعر عند الفرابي إلاّ أقاويل مخيّلة إذ أنّ «الإنسان إذا نظر إلى الشيء يشبه بعضه ما يعاف فإنه يُخَيَل إليه من ساعته في ذلك الشيء أنه مما يعاف، فتقوم نفسه منه وتتجنّبه، وإن اتفق أنه ليس في الحقيقة كما خُيِّل له كذلك يعوض للإنسان عندما يسمع الأقاويل التي تحاكى فَتُخَيل في الشيء أمرا ما، وذلك أن الذي يراه ببصره فيخيّل الله أمرا ما في ذلك الشيء لو وصف له ذلك بعينه بقول، فإن ذلك القول كان يُخَيَّلُ له في ذلك الشيء الأمر بعينه الذي خيّل فيه ما رآه ببصره، و ذلك مثل الأقاويل التي تُخَيَّلُ الحسن في الشيء أو القبح فيه، أو الجور أو الحسنة أو الجلالة، فإنّ الإنسان كثيرا ما تتبع أفعاله تخيلاته، وكثيرا ما يتبع ظنّه أو عمله، و كثيرا ما يكون ظنّه أو علمه مضادّا لتخيّله فيكون فعله بحسب تخيّله لا بحسب ظنّه أو علمه»(العزيز، 1984 ص 113).

فالصورة المتخيّلة ليست شرطا أن تتطابق مع الواقع فقد تختلف عن الواقع إيجابا أو سلبا فالتخييل الشعري عند الفرابي شبيه بالمحاكاة الأرسطية. وتحاكي المخيلة عند الفرابي خمسة أشياء و هي: الأجسام المحسوسة، إحساس الحاجة إلى الغداء، الإحساس بالحر و البرد، الإحساس بنزعات الشهوة والغضب فهو ما يرّد على المتخيّلة من معقولات، على أنّ المتخيّلة لا تحاكي المعقولات إلاّ بالمحسوس(قمير، 1973 ص108 ،109)والفرابي كغيره من الفلاسفة المسلمين جعل من التخييل الثوري فرعا من فروع البحث المنطقي، عندما ركز على علاقة الخيال بالعقل.فيقول في حديثه عن المخيلة ولها في حفظها رسوم المحسوسات وتركيب بعضها إلى البعض، فعل ثالث، وهو المحاكاة، فإنها خاصة من بين سائر قوى النفس،لها قدرة على محاكاة الأشياء المحسوسة التي تبقى محفوظة فيها. فأحيانا تحاكي المحسوسات بالحواس الخمس، بتركيب المحسوسات المحفوظة عندها

المحاكية لتلك، وأحيانا تحاكي المعقولات(الفرابي، 1973 ص108 ،109).

2.4. ابن سينا: (ت 428 ه):

تكلّم ابن سينا عن التخييل إذ قال بأنّ " الكلام المخيل موجه إلى الغير، وهنا نرى أثر ارتباط الشعر بالمنطق عند العرب، فالجدل يراد به إقناع الغير ويعتمد على المقدمات المقبولة عند العلماء، والخطابة يراد بها إقناع الغير وتعتمد على المقدمات المقبولة عند الجمهور، والشعر يراد به إيقاع المعاني في نفوس السامعين، فالتخييل الشعري نظير التصديق الجدلي والخطابي(جودة، 1984 ص 155).

و يركز ابن سينا على دور الصورة في تفعيل الخيال فالوصول إلى الحقائق لا يتمّ إلاّ من خلال طريقتين: طريق الحركة والخيال وطريق يتوسط المقدمات المنطقية، كما ميّز ابن سينا بين نوعين من الخيال: الأول طبيعي يرتبط بالجزء الطبيعي من النفس والثاني خيال ميتافيزيقي وهو الذي يرتبط بالجزء الإلاهي من النفس، سواء في النجاة أو الشفاء أو الرسائل، في حين درس الجزء الثاني ضمن الإلهيات و خصوصا في الإشارات والتنبيهات ولم يفصل ابن سينا الخيال عن العقل إذ يوجد اتّصال مباشر بين الخيال والعقل لأنّ العمل الشعري يبنى على منطق فلسفي حيث أن التأثير في المتلقي يكون الهدف منه الفائدة و التوعية و المعرفة ككل إجمالا، فالذين يتلقون الشعر يتمتعون بقوّة تخيّلية تفوق قوّتهم التفكيرية، فإدراك الحقائق لا يتمّ بصحبة التخيّل ذلك أنّ تصديق الأمور البرهانية يعتمد على قوّة التخيّل.

فالتخيّل هو« مخاطبة القوّة المتخيّلة في النفس وهذه القوّة تعمل على صور المدركات الحسية التي تصل إلى قوّة الخيال من الفنطاسيا أو الحسّ المشترك، و تقوم فيها بالجمع و التفريق كما تشاء، كما تقوم بهذه العمليّة أيضا مع المعاني المدركة من المحسوسات الجزئية التي تنالها قوّة الوهم»(العزيز س.، 1980 ص 146).

و أنّ القوة التي تسمى متخيلة هي قوة مرتبطة في التجويف الأوسط من الذماغ من شأنها أن تركب بعض ما في الخيال مع بعض وتفصل بعضه عن بعض(خليفة، 1988 ص 36 ،37).

وقد قسّم ابن سينا الحواس إلى قسمين: حواس ظاهرة وحواس باطنة، فالحواس الظاهرة هي: البصر و السمع و الشم و الذوق و اللّمس، أما الحواس الباطنة فهي الحسّ المشرك المصوّرة المتخيلة المتوهمة و الذاكرة.

3.4. ابن رشد (ت 995 ه):

تحدّث ابن رشد عن المعرفة الحسّية والمعرفة العقلية، فوجود المحسوس شرط ضروري في المعرفة الحسّية، بالإضافة إلى شروط أخرى منها وجود وسط ملائم بين عنصر الحسّ و المحسوس، أما المعرفة العقلية فهي التي تعتمد على العقل لكونه قادرا على إدراك الحقائق العميقة، التي هي أبعد عن الإنسان في حقيقة الأمر لكونها أقرب إلى طبيعة الأشياء، خاصة و أن هذه الحقائق ما هي إلا معقولات صرفة بحيث لا تتمثل لها أي صورة من الصور في المخيّلة. و قد قسّم ابن رشد العقل إلى أقسام هي: العقل الهيولاني (العقل بالقوة)، العقل بالفعل، العقل المستفاد، العقل الفعّال.

و يتساءل ابن رشد هل ماهيات الأشياء ومعقولاتها هي الأشياء المفردة بأعيانها على جهة ما نقول. إن خيال الشيء هو الشيء بعينه، وإن صورة الشيء المحسوسة هي المحسوس في المعنى، أم هي غيرها بوجه ما، على أن لها وجودا خارج النفس.

وقد استعمل ابن رشد مصطلح التخييل بمعنى المحاكاة، أي هو تشبيه أو لون من ألوان الاستعارة، فالتخييل طريقة خاصة في الاستعمال اللغوي، أو هو شكل من أشكال التشبيه كالاستعارة وغيرها من الأساليب الخاصة القائمة على التشبيه، و قد جعل ابن رشد الشيء قائما على التخييل « الأقاويل الشعرية هي الأقاويل المخيّلة»(رشد، 1973 ص 201).

فالتخيّل مرادف للمحاكاة من جهة ومرادف للتشبيه من جهة أخرى، يقول ابن رشد: و كما أن الناس بالطبع قد يخيّلون و يحاكون بعضهم بعضا بالأفعال ... إما بصناعة و ملكة توجد للمحاكين، و إما من قبل عادة تقدمت لهم في ذلك، لذلك توجد لهم المحاكاة بالأقاويل بالطبع و التخييل ... و الصناعة المخيلة أو التي تفعل فعل التخييل ثلاثة: صناعة اللحن و صناعة الوزن و صناعة عمل الأقاويل المحاكية»(سينا، 1969ص21 ،15). كما قال محمد غنيمي هلال عن ابن رشد: « إن المحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء: من قبل النَغَمْ المتدفقة، و من قبل الوزن، و من قبل التشبيه»(غنيمي، 1964 ص 168).فالمحاكاة أعم من التشبيه و أعم من المجاز.

و قد تحدث ابن رشد عن مفهوم الوهم حين يميّز بين الألفاظ و معانيها « فقد يتوهم الإنسان صدفة معينة ليست هي الموجودة، إنّما وقع الوهم بها، نتيجة سوء فهم العلاقة بين الألفاظ ومعانيها، فلا يمكن أن تكون الألفاظ مساوية للمعنى و متعددة بتعددها، إذ كانت المعاني تكاد أن تكون غير متناهية، و الألفاظ متناهية»(رشد، 1973 ص 06).فالوهم لا يتمّ إلا من خلال حضور خيال يربط الألفاظ بغير معانيها الحقيقية.

فقد بين ابن رشد في كثير من المواقف أن التخييل مطابق للمحاكاة وهذا راجع لتأثره بآراء أرسطو في المحاكاة: « الأقاويل الشعرية هي الأقاويل المخيّلة و أصناف التخييل والتشبيه ثلاثة: اثنان بسيطان و ثالث مركب منهما، أما الاثنان البسيطان فأحدهما تشبيه شيء بشيء و تمثيله به، وذلك يكون في لسان بألفاظ خاصة عندهم، تسمى حروف التشبيه، و إما أخذ التشبيه بعينه بدل الشبيه»(نصر، 1984 ص156). و هنا يقصد ابن رشد التشبيه بأنواعه من كنايات واستعارات.

4.4. مفهوم الخيال عند الشيخ محي الدين ابن عربي:

وصف ابن عربي التخييل بالقدرة على الخلق و الإيجاد مما يجعل للإنسان نصيبا من التأله يشارك به القوة الوجودية في خالقيتها وإن اختلف معنى الخلق باعتباره النسبة(نصر، 1984 ص115). و قد فرّق ابن عربي بين مفهومي الخيال المتصل والخيال المنفصل، فالنوع الأول يعكس خيال الإنسان الفردي. أما النوع الثاني فيقصد به الخيال الميثافيزيقي المنفصل عن الإنسان، والخيال عند ابن عربي

هو خيال خلاق وفاعل ومنتج إذ لولا الخيال لما وصلنا إلى المعرفة الوجودية والحقيقية.

فالخيال عند ابن عربي يتفق مع مجموعة من المفاهيم مثل الحس المشترك، الخيال، التخيّل، الصورة، الفكرة، الوهم، الذاكرة، الحافظة، وهذه كلّها مفاهيم أوردها الفلاسفة المسلمون كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل.« إن الخيال في عرفانية ابن العربي له الحكم في المحسوس و المعقول و الحواس و العقول و في الصورة و المعاني، و في المحدث و في القديم، و في المحال و في الممكن و في الواجب، و عنده أن من لا يعرف مرتبة الخيال فلا معرفة له جملة واحدة"(نصر، 1984 ص120)، و يعترف ابن عربي بأن ما أذاعه بين الناس من معارف و علوم ورؤى و نبوءات كان من وحي الخيال، فالخيال هو أصل الوجود، ومفهوم الخيال «هو الوسيط السحري بين الفكر والوجود و تجسيد الفكر في الصورة و موقع الصورة في الوجود هو تصور ذو أهمية بالغة»(كوربان، 2008 ص 229).

فقد طرح ابن عربي علاقة الخيّال بالصورة باعتباره القدرة المطلقة التي تجسد و تبدع وتوّحد و تخلق الصورة فالخيال ليس له « قوّة تخرجه عن درجة المحسوسات، لأنه ما توّلد ولا ظهر عينه إلا من الحسي، فكل تصرف يتصرفه في المعدومات و الموجودات، و مما له عين في الوجود، أو يصوره صورة ما لها بالمجموع عين في الوجود ولكن أجزاء تلك الصورة كلها أجزاء وجودية محسوسة»(نصر ع.، ص 119). فالخيال قدرة فعالة تجمع بين الحسّ والفهم و التجسيد الصوري الذي يتميز بالتجدد.

و يرى كوربان أن ابن عربي ومن خلال الفكرة الأصلية عنده وهي التجلي أن عملية الخلق أساسا تجلٍّ، والخلق هو كذلك فعل للقوة الخيالية الإلاهية، إذ إنّ ذلك الخيال الإلاهي الخلاق هو بالأساس خيال مطبوع بالتجلي(كوربان، 2008 ص 233). و التجلي هو عملية الكشف عن المحجوب عن طريق قراءة الخيال و بذلك يغدو الخيال هو الوسيط الفعّال بين الفكر والوجود ، إنّ حديث ابن عربي عن الخيال جاء بوصفه وحدة تفاعلية صوفية سعى من خلالها إلى معرفة الكون وأصل الوجود والذات الإلاهية فدراسة الخيال المنفصل والخيال المتّصل تقدّم إشكالية الخلق الإلاهي والخلق الإنساني، فالخيّال المتّصل يرتبط بالروح الإنسانية بينما يرتبط الخيال المنفصل بالذات الإلاهية. بينما الخيال بوصفه قوّة فنيّة إبداعيّة تميّز التعبير الأدبي والشعري فهذا ما لم يكن من اهتمامات الشيخ ابن عربي ذلك أنّ أنطولوجيا الخيال جاءت لفك شفرات فلسفية منطقيّة صوفيّة تناقش إشكالية الديني و الدنيوي.

5.4. الخيال عند حازم القرطجني: (ت 684 ه):

يعتبر حازم القرطجنّي (ت 684ه) من أهم النقاد العرب الذين قدّموا تصورا واضحا و مفصّلا عن مفهوم التخييل من خلال معرفته وقراءته الواسعة لآراء الفلاسفة والبلاغيين و النقاد الذين خاضوا في هذا الموضوع، ليصوغ من كل ذلك مفهوما دقيقا وشاملا للتعبير من خلال رصد علاقته بشرح مفهوم التخييل و تشكلاته الإبداعية والجمالية في النص الشعري. إن غايّة الشعر بالنسبة له كما يتجلّى ذلك بوضوح في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء

أسمى بكثير من المقدّمات الصادقة والكاذبة الخارجة من رحم المقولة الأخلاقية، هي غاية تروم الخاصيّة المرنة للقوّة التخييلية والمشدودة بعصب القدرة على صوغ فضاءات تخييلية تؤثر في النفوس، عمادها المجاز الخلاق و الاستعارة المجنّحة(الديهاجي، 2014 ص 35). وقد قسّم حازم القرطجني الشعر إلى قسمين مختلفين شعر إخباري وآخر إنشائي، و هذا الأخير قائم على التمثيل والرؤيا والتخييل. وعرّف حازم القرطجني التخييل بقوله: التخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المتخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصورها(القرطجني، 1986 ص89). فالتخييل بناء لا يتم إلى بحضور طرفين أساسيين في العملية التخييلية هما المبدع (الشاعر) والمتلقي (السامع) ويضيف القرطجني في قوله: « الخيال هو وسيلة الاتّصال بين المبدع و قارئه و لولا وجود التخيّل لظلت القصيدة صورا متينة لا تجد طريقا إلى تمثيلها و الانفعال بها»(القرطجني، 1986 ص164).

إذن فحياة الشعر أو موته ترتبط بمدى تمثل الشاعر في شعره أو قصيدته لقوّة تخيّله لفعل نصّه وتبعث فيه الحياة من خلال طريقة خاصة في عرض المعاني الشعرية في أسلوب خاص متميز يعكس النظام المتخيّل لدى الشاعر.

وقد ربط حازم التخييل بالمعاني الشعرية فيرى أن المعاني الشعرية هي ما « ليس له وجود خارج الذهن أصلا»(القرطجني، 1986 ص 15)، فالمعاني الشعرية هي طريقة خاصة في الإدراك و هي ترجمة خاصة تتمّ في الذهن للأشياء الموجودة في الأعيان أو العالم الخارجي. فالتخييل عند حازم هو قوام الشعر وأساسه فقد أقرّ حازم بصريح العبارة أن التخييل هو أساس الشعر وعموده أمّا الإقناع فهو قوام الخطابة وعلى أساس ثنائي (التخييل/ الإقناع) و (الشعر/ خطابة) أقام حدوده بين الشعر والخطابة، ومن هنا جاء اهتمامه بقضيّة الصدق والكذب في الشعر.

و القول بالتخييل في الشعر لا ينافي الصدق أو اليقين، لأنّ التخييل قد يكون لما عليه الشيء أو بما ليس عليه، « واعتماد الصناعة الشعرية على تخييل الأشياء التي يعبر عنها بالأقاويل و بإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة، و كان التخييل لا ينافي اليقين كما نافاه الظن، لأنّ الشيء قد يخيّل على ما هو عليه، وقد يخيّل على غير ما هو عليه»(القرطجني، 1986 ص 62 ،63).

إذن فالصناعة الشعرية قد تقوم على مقدمات صادقة لا مقدمات كاذبة و في كلا النوعين يحصل التخييل. و في هذا الشأن يقول حازم : « إن الأشياء منها ما يدرك بالحس ومنها ما ليس إدراكه بالحس، والذي يدركه الإنسان بالحسّ فهو الذي تتخيله نفسه لأن التخييل تابع للحسّ، و كلّ ما أدركته بغير الحسّ فإنما يرام تخييله بما يكون دليلا على حاله من هيئات الأحوال المطيفة به واللازمة له حيث تتكون تلك الأحوال مما يحسّ و يشاهد، فيكون تخييل الشيء من جهة ما يستبينه الحسّ من آثاره والأحوال اللازمة له حال وجوده و الهيئات المشاهدة لما التبس به و وجد عنده»(القرطجني، 1986 ص98).

إنّ مصدر التخييل هو الحسّ أو الإحساس، لأن الصور المتخيّلة هي نوع من الإنتاج الذهني الذي يكون منطقه الواقع الخارجي أو الإحساس الفعلي بالأشياء. بيد أنّ تبعيّة التخييل للحسّ لا تعني في تصوره أن الصور الفنية التي يشكلها الخيال الشاعري يجب أن تكون مماثلة لظواهر الواقع العلني و مطابقة لطبيعتها المادية و خصائصها الحركية، فالتخييل رؤيا جمالية للذات والعالم، يتحرر بها الشاعر من الطرق الإدراكية المقصودة و المحدودة من النظر إلى الأشياء في علاقتها بذاتها وللإنسان(الادريسي م.، 2015 ص 106). فالتخيّل الشعري إذن هو تشكيل معاني شعرية جديدة و صور غريبة لم تدرك من قبل « و محصول الأقاويل الشعرية تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ما هي عليه خارج الأذهان من حسن أو قبح ،حقيقية أو على غير ما هي عليه تمويها و إلهاما»(القرطجني، 1986 ص 120).

وقسّم القرطجني التخيّل في الشعر إلى تخييل ضروري و آخر ليس بضروري، فأمّا الضروري فهو تخييل المعنى من جهة اللفظ، ويعني به الوقوع على المعنى الملائم المستوفي لشروط التخييل، من حيث الغرض، والدلالة، والتحسين، والتقبيح، و توافر شروط الصدق أو الكذب فيه، وتخيل الأسلوب، وتحايل الأوزان والنظم، وكلا النوعين يكملان بعضهما البعض وكلاهما مهم ولابدّ منه.

ويبدو مما سبق أنّ التخييل عند حازم القرطجنّي يتداخل مع المحاكاة و هذا واضح في حديثه عن المحاكاة والتخييل، يقول: « لما كانت النفوس جبلت على التنبه لأنحاء المحاكاة و استعمالها و الالتذاذ بها منذ الصبا و كانت هذه الجبلة في الإنسان أقوى منها في سائر الحيوان (...) استند ولوع النفس بالتخيّل، و صارت شديدة الانفعال له حتى أنها ربّما تركت التصديق للتخيّل، فأطاعت تخيّلها وألغت تصديقها، و جملة الأمر أنّها تنفعل للمحاكاة انفعالا من غير رؤية، سواء كان الأمر الذي وقعت المحاكاة فيه على ما خيّلته لها المحاكاة حقيقة أو كان ذلك لا حقيقة له فيبسطهما التخيّل للأمر أو يقبضها عنه، فلا تقصر في طلبه أو الهرب منه عن درجة المبصر لذلك، فيكون الشيء أو تركه طاعة للتخيّل غير مقصر عن إيثاره أو تركه انقيادا للرؤية»(القرطجني، 1986 ص 116).

إذن فالمحاكاة والتخييل حركة إبداعية تنتج عن رغبة نفسية فالتخاييل الشعرية قد تقترب من الواقع المادي أو تتطابق معه، أو قد تبتعد عنه وتؤسس للصورة الجديدة بعيدة عن الواقع الخارجي. فالنشاط الإبداعي للخيال الشاعري يتشكل ضمن المسافة الإدراكية الممتدة بين الحسّ و العقل و أن على حركته الذهنية ألاّ تتجاوز حدودها و تخرقها. والحق أن مفهوم التخييل عند حازم واسع ومتفرع و يتحدد في إطار بحثه في أغراض الشعر ومعانيه، وفي المحاكاة والتحسين والتقبيح والصدق والكذب والأثر النفسي للشعر، وكما أنه لا يحقق الشعر أثره التخييلي إلاّ إذا وجد متلقي يملك الاستعداد النفسي للتفاعل مع القول الشعري و تذوقه.

5. خاتمة:

إن الخيال لا ينفصل عن التخيل في الثقافة العربية الإسلامية من حيث كون الأول يستدعي الثاني و يؤدي إلى حدوث الحركة الذهنية الدالة

عليه في النفس وتفيد سياقات توظيف الخيال والمتخيل أنها كانت تستعمل للدلالة على الطيف والصورة الماثلة في الذهن، كما تؤشر سياقات تعريفها على غنى معانيها وتعددها بين اللغويين والبلاغيين. أما الفلاسفة فقد أضفو طابع فلسفي ومنطقي في بحثهم حول الموضوع الخيال والتخييل حيث عملوا على بناءه وفق قواعد عقلية ومنطقية تعود بالتخييل إلى الصنعة والمهارة والفطنة والحيلة والخداع واختيار الصياغة وضبطها بمعايير الصدق والكذب، لينتهي بهم الأمر إلى اعتبار التخييل فرعا من فروع البحث المنطقي، وهذا ما ذهب إليه الفلاسفة اليونان من قبل فأرسطو يرفض فكرة تحرير الخيال، بشكل كلي ومطلق من صرامة العقل. ويعود هذا الرأي إلى كون الفلسفة قامت على التأسيس لإشكالية العقلي والخيالي فمرة يأخذ العقل الأولوية وأخرى يأخذها الخيال.

5. قائمة المراجع:

ابن منظور جمال الدين، (1994) ،لسان العرب، لبنان: دار صادر.

ابن سينا ،1969.كتاب المجموع أو الحكمة العروضية في كتاب معاني الشعر، القاهرة :مركز تحقيق التراث.

ابن رشد،(1973)،تلخيص الشعر. القاهرة:مطبعة دار الكتب.

ألفت كمال عبد العزيز ،(د.ت)، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أرسطو،(د.ت). فن الخطابة ، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة .

إبراهيم مصطفى وآخرون،(د.ت)، معجم الوسيط .تركيا: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر.

الفيروز آبادي،(1994)، القاموس المحيط . لبنان:دار الكتب العلمية.

هنري كوربان،(2008). الخيال الخلاق في تصوف ابن عربي، بغداد: منشورات الجمل .

حازم القرطجني،(1986)،منهاج البلغاء وسراج الأدباء. بيروت :دار الغرب الإسلامي.

يوسف الإدريسي، (2015)،مصطلحيات محلية علمية متخصصة في قضايا المصطلح، مطبعة آنفوا الدار البيضاء،ع8.

يوسف الإدريسي،(2014)،الخيال والمتخيل في الفلسفة والنقد الحديثين.المغرب: مطبعة النجاح الجديدة.

يوسف الإدريسي(2012).التخييل والشعر حفريات في الفلسفة العربية الإسلامية، الرباط: منشورات ضفاف دار الأمان.

يوحنا قمير،(د،ت)، فلاسفة العرب الفرابي ، بيروت: دار المشرق.

محمد عثمان نجاتي،(1980) .الإدراك الحسي عند ابن سينا، بحث في علم النفس عند العرب، القاهرة : دار الشروق.

محمد الديهاجي ،(د.ت)، الخيال وشعريات المتخيل بين الوعي الآخر والشعرية العربية، المغرب: منشورات محترف الكتابة، المكتب المركزي بفاس.

محمد المصباحي،(د.ت)، التأصيل النقدي للحداثة وما بعدها قراءة في الفلسفة الكانطية،المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط.

محمد بن محمد عبد الرزاق المرتضى الزبيدي ،(1994) ، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

محمد خليفة ،(1988)،مفهوم الخيال بين الفلاسفة و النقاد المسلمين حتى القرن السابع هجري، رسالة قدمت لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،قسم اللغة العربية، جامعة حلب ، سوريا.

محمد غنيمي هلال.(1964)،النقد الأدبي الحديث ، القاهرة، دار النهضة العربية.

سعد عبد العزيز مصلوح،(1980).حازم القرطجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر، القاهرة :مطبعة دار التأليف.

عاطف جودة نصر(1984)، الخيال مفهوماته و وظائفه، القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب.